قصة قصيرة

فأس النسغ والقشور

ربيع ديب

ها انا عدت اليك .. فهل تتسعين .. ها انا عدت كثيرا . لا يباشير على الصدر ولا امس .. قلبي يسابقني اليك . ويحفق .. تتعلق عيناي بالبساط الاخضر يمتد على طول الساحل ويغشاني الندم ... ماذا اقول لك ؟. اكابر هناك .. وامامك لا اكابر .. بيروت امرأة شبقة . مثيرة كضوء في ليالي الصيف تسقط فيه كفراشات محمومة وتجف هناك دون جذور .. فاعذريني ..

بيروت المرأة صار لها مخالب .. انت لا تذكرين غير انني صفقت الباب خلفي ورحلت . اخترت - ربما عمدا - موسم القطاف ورحت اخب باتجاه بيروت وفي رأسي احلام تكبرني بأعوام .. ضفت هنا بعناقيد الليمون اقطفها بانامل المتشفقه قبل الاوان لاراها تنفلت من يدي وتستحيل نسغا يغذي شرايينه .. كنا نسمع هدير سيارته وموقها المتناغم فتنهمك .. يترجل منها ويقف هناك في مكانه المعتاد تحت شجرة الايمون الكبيرة يرحبنا بعينين باردتين .. يفتح محفظته الانيقة ويروح يوزع الاجور بانامله الطويله البيضاء .. يقبض على الدراهم دون حماس ونتراجع الى البستان نداري القهر والغضب .. وفي يوم ، وكانت الطائرات ، كعادتها ، تلقي نفاياتها في ارجائك ، راودتني الفكرة .. راحت تضج في راسي مسعورة : ماذا املك ها هنا .. اي معنى للحياة تبتدىء بالفجر قطافا وحرثا وتنتهي في المساء دون غاية .. اي معنى لهذا الخوف يطوقنا ويدفننا بين صخورك دون اظافر كلما اقبلت طائرة ؟.

اعذريني اذا ما بحثت عن الاعذار .. كنت باستمرار اشعر ان جدارا ارتفع بيني وبينك . اشعر حتى العظام انك لي .. لي .. حتى وانت سجينة داخل الاعراف والقوانين ، وكنت ادرك انك راضية عني ، تشفقين علي .. حتى وانا في شوارع بيروت البلوريه القاسيه كنت تراودين مخيلتي سخيه طيبه ، تمنحين حياتي المعنى الذي افتقر اليه.

اتذكرين ؟. منذ اعوام ثلاث ، وكانت عناقيد الليمون خضراء لما تزل . وكنا قد شرعنا نقطف البواكير ونرصفها داخل صناديقها .. وكانت وجوهنا كالحه تنطوي على الحرمان والاستلاب عندما بدات افكر على غير المألوف .. صدقه التقيت والدي عند عاملات التوضيب . جئنا معا لافراغ ما قطفناه عندما قلت له :

- انظر .. عشرات نحن في هذا البستان . نحرثه ، نقلم اشجاره ، وحين تنمع نقطف الثمر ليمتاش به غيرنا .. ابي .. لو كانت لنا هذه الارض جميعا : لو كانت لنا هذه الاشجار . اذا لاعطت بوفرة اكثر .. ولكنا غيرنا الان .

يومها رمقني ابي بارتياب فاربكني . ولكنني كنت مثقلا حتى الاعماق .. قلت لن يمنعني كائن من كان عن الجهر بما افكر فيه . ولذلك تابعت :

- ابي . انها لنا نحن .. صدقني .. لنا نحن .

ولفظ ابي عبارة واحدة قبل ان يتركني :

- انت مجنون ..

شعرت بالجرح ينخر كبريائي .. تلفت حولي وهالني انهم يعملون بحماس وكأن الشجر لهم والثمر لهم قلت متى يستيقظون ؟. تلفت في ارجائك وشعرت بك تتحشرجين .. ولعلني وقفت طويلا في موضعي اقلب الامر منصرفا عن عملي . فقد لاحظت الوكيل يرمقني بنظرات تأنيب وتبرم . فأقسمت فجأة - واذكر انني اقسمت بك - الا ابقى في هذا المكان ، وكنت احرص على افكاري فخرجت من البستان مطعونا وانا افكر بهم ..

وفي البيت كانت امي تصلي .. لعلها كانت تستمطر السماء رافة بال ورحمة .. كان وجهها معذبا كوجوههم هناك في البستان .. انتظرت حتى فرغت وقلت لها :

- امي .. سأرحل !.

ظلت راكعه في مكانها والوجوم يتشعب في التجاعيد السمراء وهي تقلب في عينين حائرتين . قلت :

- الى متى ابدد جهدي دون طائل ؟

ابتسمت بمرارة - على ما اذكر - وحلتها ستكرر عبارة ابي . ولكنها قالت :

- رحل كثيرون قبلك .. ماذا جنوا ؟.

قلت

- وانتم .. ماذا جنيتم ؟.

قالت

- الستر ورحمة ربك .

عندها التمع وجهه في ذهني بحدة : الوجه النضر المعافى والثوب الانيق والسيارة الفارهه تمرق هادرة على اعصابنا وتستمد وقودها من دمنا . قلت بحزم :

- ولكنني سأرحل ..

وصفقت الباب خلفي ورحلت .

□ □ □

صدقيني .. كنت انسلخ عنك رغما عني .. وفي الصدر جراح .. وبيروت استقبلتني بلا عاطفه . والغرفه الضيقة انطوت لسنوات ثلاث على عذاباتنا . انا واخرين معي ، وقال ابن عمي :

- ماذا اتى بك ؟

قلت

- صاحب البستان والوكيل ..

قال :

- سنجدهما هنا في بيروت .

وفي لهجه كانت مرارة ساخرة فتجاهلته .. كابرت طويلا .. سنوات ثلاث : الغربة . تسرب النسغ من الشرايين . وانا اكابر . احاول مسح رحيلي معنى فلا افلح .. والتقيت بهما : السيد والوكيل ، في ورش البناء . وفي المعمل عبر القاطنين معي في الغرفه . واكتشفت هناك انهم مثلي يحلمون بقطعه ارض وبستان صغير .. وها انت ذى تريدهم يرجعون .. مثلي يرجعون دون مال واكاليل غار . وفي وجوههم واجسادهم الشائهة اثار النزف اليومي .

بيروت يا سيدتي وهم كبير .. ضجيج يرعد باستمرار فنجذب اليه.. دافئة هي . توعد ولا تفي .. ولكنني حين غادرتك شعرت بالاثم يشرقني فلم اجرؤ على العودة . حتى حين كان الارهاق يهدني في الورشة وتنغرز الاسلاك المعدنيه الدقيقه في اصابعي وراحتي كنت امسح نقاط الدم بسروالي واظل واقفا في الشمس او تحت المطر اشبك قضبان الحديد لترتفع اعمدة شاهقه في البناء الكبير .. وكنت اراهم فيعتصرني الالم : عمال سوريون من مختلف الاعمار ، حفاة بارزوا العضلات وهم يطعمون جبالة الاسمنت وقد تلطخت اجسادهم واندفن التذمر خلف جلودهم السمراء المتغضنه وتحولوا الى رديف لهذه الالة تدور كدوامه ضاجة دون عاطفه والبرميل يصعد ويهبط في حركة رتيبة بين الطوابق . والرجال هناك يتصنعون اللامبالاة . يصخبون او يصمتون .. وحين يتشاجرون لاسباب تافهه ينفسون عن غضبهم بكل العنف المتولد عن قهرهم وحرماناتهم .. تتصادم اجسادهم وايديهم ويتقاذفون الخشب والقطع الساقطه من احجار الاسمنت ، ويسيل الدم ولا يهدأون الا حين ياتي الوكيل والمهندس وصاحب الورشة ويروحون يشتمونهم ويشتمون الارض التي انبتتهم .. وكأنما بفعل ساحر يرين الهدوء فجأة وينسون وتعود احاديثهم عائليه وديه في الامسي الباردة ونحن نتحلق حول الموقد في غرفه الناطور نحتسي الشاي الداكن الحلو . واكتشف انهم مثلي تخلوا عن الارض مرغمين وجذبتهم بيروت فاتوا ينقبون عن الكنز . ولكننا يا سيدتي لم نكن لنعثر على الكنز .. واخجلاه يا سيدتي .. كنا نتحول الى حشرات ، نعتصر حتى النزف . وفي يوم ، وكانت يداي قد تعودتا شبك الحديد دون حاجة لاعمال الفكر ، كما كان الامر ونحن نقطف ليمونك ، كان البرميل الكبير يصعد مهتزا بين الطوابق حين سقط فجأة كفنبله ثقيله بينهم .. وكانوا يستشعرون الخطر بحكم العادة .. فقد تفرقوا مسرعين واحلوا للبرميل بقعة مستديرة من الارض انقذف فيها وقفز كرة ناثرا رذاذ الاسمنت عليهم ثم هدأ .. وقبل ان نصحو تماما من الصدمه كانت اعيننا تعلق بأحد العمال وقد ساطه الحبل المعدني فترك في جسده جرحا داميا على طول الرأس والعنق والكتف وقد تمزق الثوب واختلط بدم ممزوج بالاسمنت

لو حدث هذا فوق ارضك اذا لتوقفنا عن العمل ورحنا نبحث عن اشياء نهديها للجريح في منزله ولكننا في الورشه تابعنا العمل . صدقيني .. حضر صاحب الورشه وحضر الوكيل ثم المهندس وانعقد مؤتمر صغير بحثوا فيه امكانيه ان تعود الجباله الى العمل بسرعه . واما العامل فقد غسلوا جرحه بالماء وظل واقفا يكابر ثم عاد للعمل من جديد وعادت الورشة الى حركتها الدائمه وكأن شيئا لم يكن .

وفي الغرفة هناك ، في الزقاق المنتن تفوح منه رائحه العفونه وتضج الليالي بحشرجات قاطنيه مكبوته وعلى هامش المدينه كنا نلتقي عدة فتيان لم يزل طينك جافا على اصابعهم نتذاكر وجهك وابناءك ، ونجتر هموما يومية نحملها من المعمل والورشه ، نناقش بصخب ، نهز قبضاتنا في وجه السماء ثم نركن لهدوء كسيف مستسلم ونروح نحلم بالضفه ، نصطنع خشبة خلاص لا تلبث ان تنتزعها الامواج في اليوم الثاني وتتركنا مضفه في اشداق المدينه الرهيبة ..

□ □ □

رتيبة ايام المدينه ، قبل ان تنفجر كبركان ، احباط يومي ، اسقاط مستمر للقيم التي درجنا عليها فوقترابك .. وفي كل مرة كنا نأتي اليك تطوقنا غربه وليدة ثم لا نلبث ان نستشعرك في لحمنا نابضة كعصفور سقط حيا .. ولكننا كنا نعود .. نتغرب في الشوارع الباردة المخنوقة بالابخرة والدخان ، نبصق البلغم مشبعا بالسخام والقهر والارهاق ونفتقد الهوية .. نعبر بالناس دون مبالاة ويعبرون بنا .. واحيانا .. اعذريني .. كنت اشعر انني سلخت عنك نهائيا .. واعود هناك ، افكر على غير المألوف كهمجي خرج لتوه من الغابه ، ساذجا ينفرون منه .. هذه البنايات ، وهذه المعامل والمعالم .. لماذا لا تكون لنا ؟ وكانوا يسخرون بلا رحمة وحين ينفجر الشارع بالاجساد والحناجر كنت انقذف بين الجموع اهتف باسمك وتصير لي هوية ، وكنت اتلقى الضرب بالايدي واعقاب البنادق فأشعر بزهو لا استطيع كتمانه ويزداد الاصرار في داخلي . وحين انفجرت بيروت بدا الامر جديدا غير متوقع .. ولكنني يا سيدتي مجبول بترابك ، اعتدت الحمم تنقذف في ارجائك فما استحوذت علي الدهشة ، وكان الرعب هناك امتدادا لرعبي في احضانك ، وشعرت لا ادري لماذا ان الحرب اندلعت ضدي ، ربما لانني فكرت على غير المألوف . ربما يا سيدتي لانني اعشقك واغار عليك في زمن يموت العشق فيه وتتحول الى حشرات .

.. وصارت لي اظافر .. اجل يا سيدتي ، كان لا بد ان تنبت الاظافر في اصابعي قبل ان ينتزعها اناس ارتفعت اجسادهم عملاقة فوقي .. وها انا ذا يا سيدتي يعضني الجوع وانا اتجه اليك .. قدماي المرهقتان تقذفان بالحصى فوق الدرب الترابية وتنبثق الذكريات حميمة طيبة ، ويبدو المستقبل رهيبا .. رهيبا .. ولكنني يا سيدتي ما ازال افكر على غير المألوف .. ما ازال اشعر انك لي .. اواجه المستقبل بهذه الحقيقة الحادة كنصل .. فافتحي ذراعيك يا سيدتي .. انا المثقل انشد اليك ابحث عن دفء وعن نسغ جديد .. وكما تنبتين اشجار البرتقال انبتي في اصابعي اظافر تصمد للعمالقة .. جسدي يرتجف يا سيدتي فدثريني .. دثريني ..

تشرين ثاني ١٩٧٦

■■